

# المسجد الكبير (جامع) في بئر السبع

## إعلان جال- بئير

إن تأسيس مدينة بئر السبع عام 1900 كان عملاً مميّزاً في كلّ فترة الحكم التركي في البلاد منذ عام 1517. ليس فقط أن الأتراك بادروا ببناء مستوطنة جديدة، إلا أنهم أيضاً أعلنوا عن إقامتها كعاصمة للمقاطعة الأكبر في مساحتها من بين المقاطعات الأربعة لمحافظة القدس – وهذا في حين لم تكن المدينة قائمة بعد. المبنى الثابت والوحيد في منطقتها كان خان، أُقيم قبل عامين من إقامة المدينة!

في سنواتها الأولى ضمّت المدينة الجديدة ما يقارب 300 نسمة، وحتى سنتها الخامسة، تبدّل فيها ستة حكام (قائم مقام). السابع الذي عُيّن لرئاسة المقاطعة كان القائم مقام محمد أصف بيه (1870-1954). يشير عارف العارف أنه، "في أيام حكمه كُبرت مدينة بئر السبع وترقّت"،<sup>1</sup> ويشرح عن بناية بيت الحاكم، وعن شفت الماء من البئر وتخزينه للمدينة بواسطة ماكينة جمعت المياه وفي نفس الوقت أستعملت كمطحنة قمح حكومية، ويشرح عن تأسيس بريد وتلغراف وزراعة أشجار كثيرة، وغير ذلك. أحد اليهود الذين زاروا المدينة في ربيع 1906 وضح هو أيضاً: "عُيّن سعادة (فضيلة) أصف بيه Assaf Bey قائم مقام منذ سنة، وهو الرجل الذي أنهى تعليمه في مدارس شبكوشطا (اسطنبول) ولديه ثقافة في عدّة مواضيع. رجل مُفعم بالقوة والإرادة الحسنة ولا يعرف الجلوس مكتوف الأيدي. كانت بداية حكمه لتجميل وتطوير المدينة"<sup>2</sup>.

في تجديداته، لم يقصد أصف بيه إفادة سكان المدينة الصغيرة فقط، وإنما أيضاً من أجل مصالح عشرات آلاف البدو في النقب. من أجلهم، أسّس سوق مواشي أسبوعي، والأهم أنه قام ببناء مسجد في المدينة، الذي خُصص ليس فقط لسكان المدينة الصغيرة فقط، وإنما أيضاً للمواطنين البدو حولها. بُني المسجد بجانب السرايا (بيت الحاكم)، الأمر الذي يوثق العلاقة مع الحكم. موقعه المرتفع على رأس تلة، إضافة لمئذنته العالية، ساهما في بروزه بطبيعة الصحراء، ومبناه المتألق خُصص للفت أعين الناظرين إليه وتجسيد علاقة السلطان، "أمير المؤمنين"، مع بدو النقب، ولتقوية صلتهم الدينية ولولانهم للحكم. في الواقع، يبدو المسجد أكبر من مقاسات البلدة الصغيرة النائمة والمُغبرة، وهناك عدد من الزوار قد لاحظوا ذلك. على سبيل المثال، قول أحد الضيوف اليهود عام 1912، "بيوت الحكومة والمسجد يمتازون بذوق رفيع، وهي جميلة وثريّة- ربما جمالها أزيد من اللازم مقارنة مع المدينة الصغيرة كلها"<sup>3</sup>. تقريباً ثلاثين عاماً بعد ذلك، حتى عام 1930، لم تكن هنالك ضرورة لإقامة مسجد آخر في المدينة. هذا المسجد الوحيد خدم العدد الكبير من سكان بئر السبع.

يُحكى أن هنالك مقال عربي محلي، من وجهاء المدينة وأثريائها قد بدأ في بناية البناء. وعندما وصلت البناية الى ارتفاع مُعين، أعتقد أصف بيه ان المبنى ليس كما توقّع، وأمر المقاول ازالة كلّ ما قام ببنائه. أحضر القائم مقام مهندساً معمارياً مسيحياً من القدس، صمّم المسجد من جديد. وضع أصف بيه بيديه حجر الأساس واستمر بمراقبة البناء. فرض على البدو في المقاطعة ضريبة قيمتها 400 ليرة لتمويل المسجد، وأعطته الحكومة مبلغ مائتي<sup>4</sup>. البناء المُجدّد بدأ في ربيع 1906. حسب تصريح مندل كرم، المقرب لمصادر رسمية، "في بئر السبع [...] بدأ الان ببناء مُصلّى – جامع – ونفق [مئذنة، منارة]"<sup>5</sup>.

الحجارة لبناء المسجد – خاصة تلك التي للمئذنة، التي يتطلّب بنائها حجارة قوية – أُخذت من حُطام حلوتسة<sup>6</sup>، وأحضرت على ظهور الجمال، وسببت خسائر للناقلين البدو<sup>7</sup>. فخلال بناية المئذنة قُتل عاملان، وقُبرا في مكان وفاتهم<sup>8</sup>، عندما زار مناحم شينكين المدينة في أواخر نيسان 1906، كان المسجد لا يزال في مرحلة البناء. فكما قال،

<sup>1</sup> عارف آل-عارف، **تولدوت بار-شبع وشبטיה**. يروسلים: أريال، 2000، عم' 206. הספר יצא לאור בערבית בשנת 1934 ותרגומו לעברית בידי מנחם קפליוק הפועל בשנת 1937 בדפוס שושני.

<sup>2</sup> בן דוד, "באר-שבע", **השקפה ז**, ע"ט (ה' אב א'תתל"ז [28.7.1906]), عم' 4.

<sup>3</sup> אליעזר, "באר-שבע", **הפועל הצעיר** ה', 11 (5.3.1912), عم' 11.

<sup>4</sup> מראיון של חאג' חאמד אבו טאהא מתל שבע עם ששון בר-צבי, 20.10.1976: **בדווים מספרים על באר-שבע**, פרסום 11 של ארכיון טוביהו, באר-שבע, 1977, עמ' 6-7.

<sup>5</sup> מנדל קרמר, "השבוע", **השקפה ז**, מ"ב (י"ט אדר א'תתל"ז [16.3.1906]), عم' 4.

<sup>6</sup> אל-עارف, שם.

<sup>7</sup> מראיון של עבדאלעאל חסין אבו פריח עם ששון בר-צבי ביולי 1976: ארכיון טוביהו, שם, عم' 28. אביו היה בין ספקי האבנים.

<sup>8</sup> שם.

"أماما... [بيت موظفي المدينة [السرايا]، والى جانبه بينون مُصلّى من حجارة مُربعة. رئيس المقاطعة [القائم مقام] خرج ليشرّف على البناء"<sup>9</sup>. في شهر تموز من نفس السنة، كان لا يزال البناء في ذروته. "بينون الان مسجدا كبيرا وجميلا"<sup>10</sup>. يمكن الافتراض، ان العمل انتهى في أواخر عام 1906. تكاليف البناء كانت أكثر من ألف ليرة، والتي جُبي قسمٌ منها من القبائل البدوية<sup>11</sup>.

ولأن طُرق بئر السبع متجهة باتجاه جنوب-شرق، وعلى المسجد ان يتجه الى جهة "القبلة"، أي في اتجاه مكة، اضطرّوا أن يبنوا المسجد ليس بجانب الطريق، ولكن بزوايا 45 درجة إليها، وهكذا فان واجهة المسجد تتجه مباشرة جنوباً. التجويف الداخلي "المحراب"، الذي يدلّ على اتجاه الصلاة، جُعل مكانه في وسط الجدار الغربي. هذا الحائط، الذي يتّجه الى المدينة وفيه البوابة الرئيسية، صُمّم بشكل هندسي، وعلى جانبي البوابة شُقت ثلاث فتحات للنوافذ (للمسجد نفسه نوافذ مزدوجة). من أجل الحفاظ على التوازن، كان من الضروري أن تكون هنالك نافذة في مركز القسم اليساري، في أحد المحاور المتصلة مع القبة المركزية: لكن هنالك بالتحديد كان موقع ال"محراب". ومن أجل ايجاد حلّ لذلك، بُنيت النافذة المركزية للمسجد كنافذة مغلقة نصفها (شباك أعمى)، فقط الجزء الأعلى من النوافذ الصغيرة والنافذة المستديرة ("طاقة") التي بينها بقيت مفتوحة. البوابة المركزية، التي تشمل أيضا باب لشخص واحد، تُفتح باتجاه ساحة مُتوّجة، التي منها يدخلون للمسجد عبر ممرّ مبني من أربع أقواس. في الجانب الآخر من الساحة بُنيت ثلاث غرف، اثنتين منها أُستخدمتا لتعليم القرآن، كل غرفة (كُتاب) مع مدخل منفرد من الخلف. الغرفة الثالثة، الغربية، استُخدمت للوضوء. لتزويد المسجد بالماء حفروا من غرب المسجد بئرا عميقا، لكن دون نجاح.

المساجد التركية آنذاك تميّزت بمحاولات ضم المبنى تحت سقف ذو قُبة، مع مُنذنة رفيعة، دائرية أو مُثمنة، حيث أن قبتها تُشبه المخروق. وفقا لذلك، صُممت في مسجد بئر السبع قبة مركزية، والتي من أجل التخفيف من وزنها، رُكبت أنابيب فارغة من فخار أسود ممسوك بالاسمنت. دُعمت القبة بأربع أعمدة فنية رباعية التي تتركز على حلقة فيها ثمانية شبابيك. بلط المسجد بلاط من ثلاثة ألوان. تشمل المُنذنة واحد وتسعون درجة حجر لولبيات التي تلتوي حول محور مركزي، المؤدية إلى شرفة للمؤدّن، المدعومة بحجارة مُنحّنة على شكل مقرنصات. حسب أقوال عارف العارف، "من ناحية هندسية يُعتبر هذا البرج لمتطوّر في كامل التطوّر"<sup>12</sup>. البوابة الفخمة بارزة بزخارفها، مع عمودين من الرخام من الناحيتين (التي أُخذت على ما يبدو من خربة بيزنطية). في صحراء النقب القاحلة وبالنسبة لمجتمع غير متعوّد على بناية كهذه، بدى المبنى مُثيرا للإعجاب. بشكل عام، يُعتبر المسجد "لمتطوّر بمحتواه من ناحية معمارية"<sup>13</sup>. ومن أجل تأكيد العلاقة بين المسجد والحكم المركزي، تُبّت فوق البوابة ختم (الثغرة) للسلطان الحاكم، عبد الحميد.

في التقرير الذي أرسل ليصل بلاط السلطان في إسطنبول، وُضح أن بناء المسجد هو عامل للتقريب بين البدو والحكم المركزي: "مقاطعة بئر السبع تجذب إليها القلوب بسبب المسجد المقدس"<sup>14</sup>. على أعماله، حاز أصف بيه على كثير من المديح. وكرمز للتقدير، مُنحت له مراتب- شرف<sup>15</sup>. متصرّف القدس المسؤول عنه، علي أكرم بيه، أرسل تقريرا لإسطنبول: "القائم مقام أصف بيه معروف بعمله المثمر، فمنذ أن أصبح حاكم بئر السبع عرف كقائم مقام يمتاز بجهوده وفعالياته الثمينة"<sup>16</sup> وهكذا فبعد خدمته في النقب، عُيّن أصف بيه في بداية تموز 1907 كقائم مقام لمقاطعة يافا، وهي بيئة مدنيّة كثيفة السكان وأكثر تطوّرًا، وهذا أيضا كمكافئه على أعماله التي تستحق المديح خلال العامين الذين خدمهما في بئر السبع.<sup>17</sup> بعد ذلك، استمر في إظهار قدراته الادارية في المجال الجماهيري في أماكن أخرى. فترة خدمته كقائم مقام في بئر السبع موثقة في ألبوم تصوير أنيق، قام بتسليمه عام 1951 لسفير إسرائيل في تركيا.

<sup>9</sup>منحם شينكين، "חלומותינו"، התרן ג, נ (23.2.1917)، עמ' 13. תיאור מיום 29.4.1906.

<sup>10</sup>בן דוד, שם. נכתב בבאר-שבע, 18.7.190.

<sup>11</sup>אל-עארף, עמ' 224.

<sup>12</sup>אל-עארף, שם.

<sup>13</sup>אל-עארף, עמ' 28.

<sup>14</sup>גנזך המדינה, מכתבי המוצרף: עלי אכרם ביי. למזכיר העליון של הסולטאן, ללא תאריך. תרגום דוד קושניר

<sup>15</sup>בן דוד, שם; קרמר, "השבוע", השקפה ז, פ"ה (כ"ו אב א'תל"ח [17.8.1908]). עמ' 2.

<sup>16</sup>גנזך המדינה, שם, עלי אכרם ביי לוואזיר העליון, 23.12.1907 [5.1.1908]

<sup>17</sup>עלי אכרם ביי למזכיר העליון, שם.